بقلم/د. كاووس قفطان
ترجمة/محمد البدري

قصة كردية مترجمة:

ذات مساء

- ١ -

كانت العيادة تتكون من صالة ضيقة وغرفتين صغيرتين جداً.. على باب إحداهما تقرأ كلمة ـ الطبيب ـ والى جوارها استقرت كلمة ـ ديناران ـ بشكل بارز.. وعلى الجدار المقابل تطالع صورة معلقة وهي تسبح في يم من الأتربة والغبار المتراكم . الصورة تمثل رأساً وقد استقر فيه مسمار كبير.. الرائحة المنبعثة من التواليت لا تحمل للمرء غير الاشمئزاز والنفور.. وهناك تجد اريكتين كان الدهر قد أكل عليهما وشرب ، وتخالهما قد وجدتا أصلاً لشئ غير الجلوس.. الصالة بدت كالحة معتمة من جراء تراكم الأتربة والغبار.. آثار المارة كانت مرتسمة على أديمها.. وعند الباب كان ينتصب فراش بشاربه الطويل المتدلي، كان على الاكثر يعاني السأم والملل. كانت حواجبه الكثة تجعل من عينيه الصغيرتين المغرقتين في اللف والدوران شيئاً يتسم في الصغر والغوص في الاعماق..

حين دخل المريض لم يأبه به مما دفعه الى ان يطرح السؤال: أهذه عيادة الدكتور فلان؟

- نعم

وبمجرد ان نطق بهذه الكلمة أدار رأسه فوراً، كان الفانوس المصلوب على الجدار يئن من تراكم الأتربة.. جلس المراجع وكأنه قد اكتشف الجنة وقال: انني من جراء الازدحام واصوات الجيران ومنبهات السيارات المزعجة طلقت النوم والراحة والهدوء هذا إضافة الى البرد الذي صار ضيفي الدائم.

- أما أنا فلست آبهاً بذلك وأنام مرتاحاً.

قال الفراش هذا قاطعاً على صاحبه الحديث من دون ان يرفع رأسه.

- إنك سعيدٌ هانئ دون شك، ليتني اكون في مثل حالتك، يبدو ان منطقتكم هادئة؟

- هادئة ؟! وهل بقيت منطقة هادئة! ففي منطقتنا حتى اصوات الاغنام والحيوانات هي الاخرى لا تنقطع حتى الفجر.

- اذن فأنت أسير الكرى..

وخيّل اليه انها صفة جيدة ونعمة، ولكن الفراش وا مرة أدار بوجهه نحوه وكأنه يريد طعنه في صدره، رمقه بن حادة وأجابه ببرودته المعتادة:

- لا لست كذلك، ولكني حين أنام أضع قدميَّ ء الوسادة بدلاً من رأسي، وأملأ أذنيَّ قطناً وأضع على عينيَّ نظ سوداء..

لكنه حين وجد الذهول والدهشة وعلائم العجب و تتراقص على وجه المريض ولكي يخفف من توتره قال والابتس ترتسم على شفتيه:

حين أضع قدميّ على الوسادة بدل رأسي هدفي من ذلك أفهم نفسي بأن هناك من الناس من تساوت عندهم الرؤو والاقدام، واغلق فمي كي أتنفس الهواء عن طريق الأنف.. ف هي وظيفة الانف ان عجزت عن التنفس من خلاله؟

رمقه المريض وهو فاغر الفم وبقي لفترة وهو لا يحر عينيه، واستمر يقول:

- ولكن ما الذي يدعوك لوضع نظارة سوداء على عين وأنت نائم؟

ابتسم الفراش ابتسامة عريضة بحيث كان من السّهل مشاهدة اسنانه كلها وكيف انها رتبت بعناية، وأجاب بهدوء:

- لكي لا أرى أحداً في نومي..

صعق المريض وبدا له انه يجلس مع مخلوق عجيب، ا أخذ يشعر بأن هذا المتحدث يسخر به.. لذا فقد جمع قوا بسرعة وقال:

- ما ألطف كلماتك هذه!

- دع كلماتي جانباً.. انك ستندهش اكثر عندما تواج السيد الطبيب وتستمع الى كلماته..

- أهو حلو الكلام مثلك؟

- إنه في منتهى الطرافة.. تصور يتحدث اليك بأحاديث شيقة لمدة ساعة بعدها يتحول اليك قائلاً: تفضل إخلع!

- ماذا؟!

انطلقت الكلمة هذه كأطلاقة مدفع من فمه ومن دون ان يرتبك استمر قائلاً:

- قل اخلع ثوبك وفانيلتك.

وقبل ان يلفظ الكلمة الاخيرة انتصب واقفاً وقد ترك بعده

آثاراً على الأريكة..

سأله الفراش:

- الى اين؟

- الى البيت انني شفيت من المرض.

- ٢ -

كان سارحاً في عوالم خياله وانسدلت أهدابه القاتمة الكثيفة بمرارة وهو يتذكر الايام الغابرة حين كان طفلاً يلعب ويلهو مع السيد الطبيب في المدرسة آنذاك.. كان المعلم (وهزَّ رأسه بأسف) يطبطب على ظهره بيده ويمرر أنامله في طيات شعره الوسخ مردداً:

انك أذكىٰ منهم كلهم، نعم أذكىٰ منهم، وعليك ان تتخذ من الفقر سلّماً نحو المجد.. كلما كان يتذكر ذلك الموقف ينتقل بصره الى الصورة المعلقة ويتراءىٰ له ان الرأس ليس إلّا رأسه وقد دقت فيه المسامير.. حين سمع صرير الباب تناول حقنة ووضعها على النار بسرعة.. جلس المراجع وقال:

- يبدو انك تُعدُّ حقنة للمريض الموجود داخل الغرفة.

«عفواً يا استاذ، ان كان الفقر يتحول الى سُلّم فانه يقود الى الحضيض».

- ماذا ؟

- لا ياسيد .. لا شيْ

- يبدو انه طبيب مثالي.. فهو لا يشبه الآخرين.. أقصد الذين يستعملون الابرة ذاتها مع عشرات المرضىٰ.

- لا يا أخي.

قالها بعد ان إستدار نحوه قليلاً ثم حدّق فيه بعينيه الغائرتين الذكيتين واستمر قائلاً:

- أن جناب الطبيب لا بد ان يزرق من يراجعه ابرةً في الأقل.

- ماذا ؟.. كيف..؟ ماذا تعني..؟

- ولكن ايُّ نوع من الحقن ذاك.. يزرقها حتىٰ العظم.

هذا غير وارد.. فهناك المريض الذي لا يحتاج الى الحقن.

- لا يا ابن العم.. فهو يرمي بسهمه..

- ولكن لا يجوز ذلك.. لا يجوز يا أخي.. فأنا مثلاً أعاني من الضغط والمسألة لا تحتاج الى زرق الابر.

جاءنا مراجع يوم أمس.. كان يعاني من إرتفاع في ضغطه، ولكن الطبيب زرقه بأبرةٍ أوصلت صرخته الى عنان السماء.

ردد المريض مع نفسه:

- ممكن ذلك .. اما انا فعلىٰ العكس أعاني إنخفاضاً في الضغط.

- قسماً بذات الله، انه سيزرقك ابرتين بالرغم منك..

واخيراً وجد المراجع نفسه على عتبة باب العيادة.

- اعوذ بالله العظيم.

قال ذلك وهو يحدّق ثانية في الصورة المعلقة (هذا الكسلان لا تنيطوا به حتى أمر حيوانٍ) ردد المعلم هذه العبارة عن الطبيب عندما كان طفلاً..

وأخيراً جلس على الكرسي بهدوء ومدَّ ساقيه بحرية، ولو كان بمقدوره لعمل على مدّها اكثر من هذا بمئة، الف، مليون، مليار مرة، او الى الحد الذي يكون في قدرته إيصال رجله الى وجهه..

- ٣ -

كان عبوس الوجه مكفهراً وأوشك أنفه ان يلامس شعر رأسه، وحين فتحت الباب للمرة الثالثة ادار رأسه وهو في منتهىٰ السأم، كان يتمنىٰ ان لا يرىٰ احداً وان يصبح جزءاً من هذه الجدران البالية المغبرة.. وقعت عيناه على أحد المرضىٰ وكان يعاني من بعض الدمامل.. مدَّ يده وتناول انبوباً طويلاً (بأدخال هذا الانبوب في بطن المريض يمكن التعرف على ما يعانيه من ألم في المعدة او الكبد او المرارة).. حين رأىٰ المريض نوعية الانبوب قال:

- يبدو انكم تنوون تشييد بناء ما ؟!

- پف

قالها بأشمئزاز .. ثم أضاف.

- ما لنا وتشييد البيوت.. پف.. وحتى لو شاء الله وطردونا من هذا السرداب.

- للدكتور على ما أعتقد..

أظهر حركة من شفتيه دلالة على الهزء والسخرية..

- عجيب ! انه يملك ثلاث.. اربع طوابق..

- ولكن قل لي لمن تنظف هذا الانبوب؟

- للسيد الطبيب.. ايّ مراجع يأتيه يدخل في بطنه هذا الانبوب من خلال فمه، وعن طريقه يشخص المرض..

أصيب المريض بالدهشة وصوّب نظراته اليه بأنذهال وقال:

- ولكن هناك الكثيرين ليسوا بحاجة الى مثل هذا؟!

- إياك ان تخبر الطبيب بهذا.. فهمت؟

ليكن الله في عون هذا المريض الذي هو الآن في الغرفة، لقد اضطررت الى ان أستعين بشخص من الشارع، لقد مسكناه سوية حين أدخل الطبيب هذا الانبوب في بطنه.. ليت الذي أصاب هذا المسكين يصيب أعدائي، اما عن الآلام والعطاس والسعال فحُدث ولا حرج.. لقد كانت الآلام تسيل من فمه وأنفه ويصهل مثل الحيوان وكادت عيناه ان تخرجا من محاجرهما.. لقد أغمي عليه مِنْ شدة الألم وليس ببعيد انه قد عاد الى وعيه الآن.

حرّك المريض نفسه ململماً شتات قوته وقال:

- هذا الانبوب غير مخصص لي.. فأنا أشكو من البواسير..

وضع الفراش يده على أنفه وكأنه لم يشعر برائحة التواليت قبل الآن وقال:

- بواسير !.. اذن انت تشكو من البواسير؟ فليكن الله في عونك.

وعندئذ لملم المريض نفسه وما استطاع ان يفعله في الحالة هذه هو النهوض بسرعة والركض نحو الباب.

بعد فترة خرج الطبيب من الغرفة ووجهه مغطىً بتثاؤب ممل.

- اذا ما بقينا على الحالة هذه فسيكون التشرد مصيرنا.. تُرىٰ هل قُضيَ على المرض ولم يبق مريض في هذه المدينة؟ الافضل ان نخلي الساحة..

قال هذا وبعدها غادر العيادة .

قال الفراش بعد ان نهض مسرعاً وقد إرتسمت على محياه مسحة من الشجاعة والقوة.

- تصاب بالأفلاس ام لا .. هذا لا يهمني.. هيا اغلقها.. قسماً بالله انني سأكتب اسمي بدل اسمك.. ولم لا؟ فأنا قادر على إعطاء الدواء للمرضىٰ مثلك انت، واذا ما سببت موت أحد منهم فأن الله سيعفو عني يوم القيامة.

نظر الى الصورة والجمجمة، ومد يده لكي يطفئ النور ولكنه وقف فجأة واتجه صوب الباب.

* * *

ترجمة
محمد صابر محمود خطاب

قصة قصيرة للقاصّ الكردي: عبدالله السرّاج
منشورة في مجلة «به‌يان» العدد/88 لشهر تموز من سنة 1983

الغرفة رقم «١١»

كان السائق كهلاً بديناً. عينان ذواتا رَمَش. معطفٌ قصير مبا بُقعاً مربعة. جَمشتُ (فضيلة) بطرف من سبّابتي:

ألا يشبهُ ملحفة الخالة عائشة؟

أنزلنا عند مغيب الرصيف. عيوننا حَبَت. شعارات الشوار ذات الالوان الزاهية كانت تقطّر بسمات ووعوداً، امّا الطرق المستقيمة فكانت تتفلُ الواناً شتّىٰ من السيارات.

قلتُ: فلنسرعْ إذن لأنّ ليل (بغداد) يتقيأ الظُلمة.

المدرّجات كانت تتوالد وتعلو صُعُدا، ونحن ـ معها ـ كنّا ندور ونصعد. أنفاسنا كادت ان تتقطّع. من وراء منضدة. فمٌ شبيهٌ بالآلة «لا مكان لدينا» أدار وجهتنا نحو الأسفل. مرةً أخرىٰ، في هذه الجهة وفي الجهة الأخرىٰ من الشارع، فندق «سه‌رچنار» ، «مصطفىٰ» ، «سيروان» ، «باواجي» و... الىٰ ان استحالت «لا مكان لدينا» مجرد تلميحات وإيماءات بالرؤوس.

ـ يا امرأة ، أنفاسي قد تقطّعتْ.

وأنا أيضاً، أصبتُ بالدُّوار...

ـ انتظري، أنتِ، هنا.. هؤلاء الجشعون الاوباش لا يأوون مَنْ لا يعرفونهم.

تحاملت فسحبت نفسي سحباً، وبقلب خائر خافق صعدتُ.

ماذا رأيت؟ وجهاً متحجّراً. فماً مُطبقاً. دلّيتُ نفسي بأنبوب الماء.

ـ ها !

ـ يا امرأة، كأنّي بهم صمٌ، فهم لا يسمعون..

ـ ريقي قد استحال في بلعومي قطعةً من العجين.

ـ وأنا كذلك.

ـ ما عدا أولياء الله الصالحين، فليكنْ مآل البقية الخراب.

ـ آمين. إحملي هذاك.

ـ هوذا فندق..